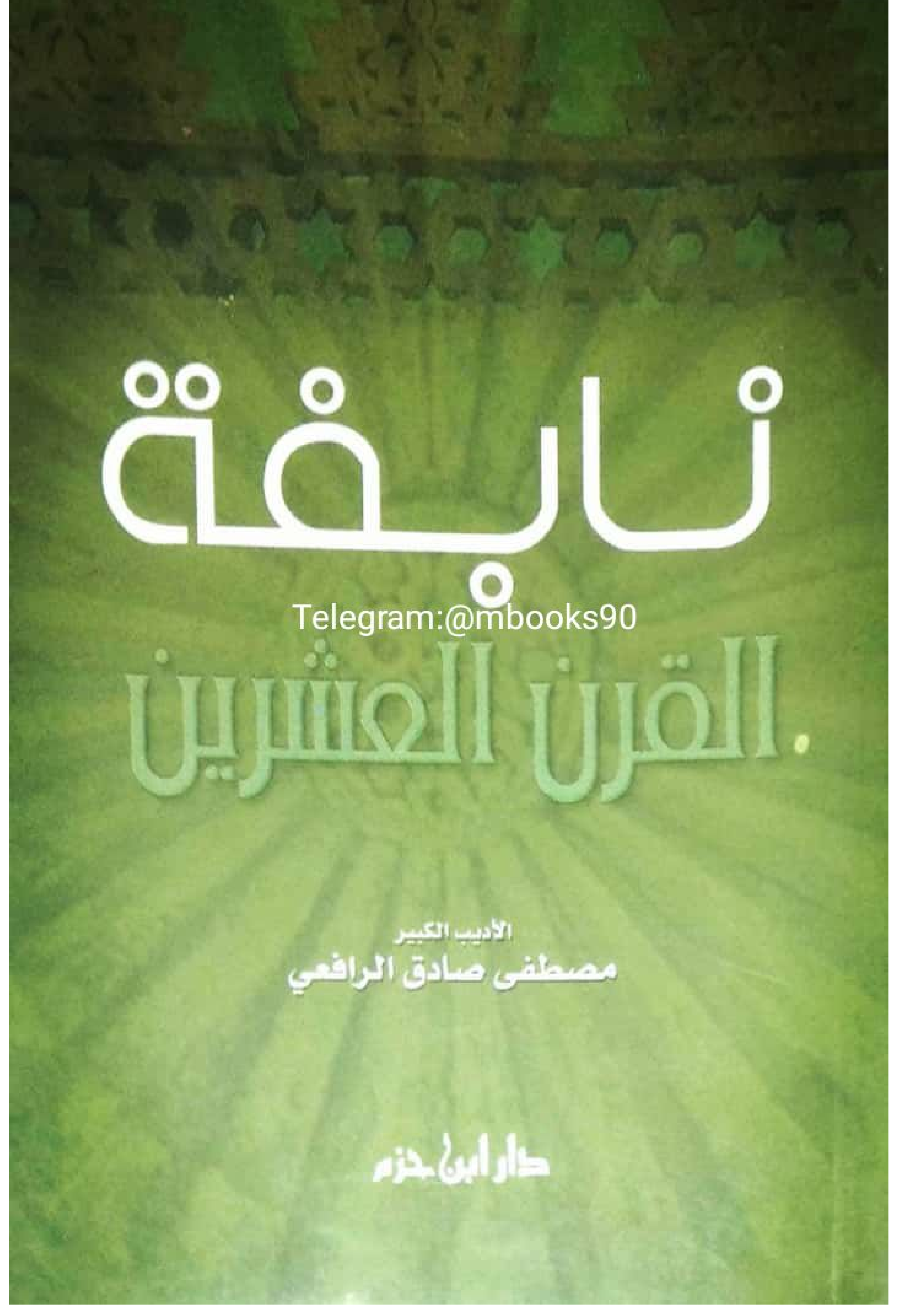


نابغة
القرن العشرين
الأديب الكبير
مصطفى صادق الرافعي
دار ابن حزم

نابغة القرن العشرين

الأديب الكبير
مصطفى صادق الرافعي

دار ابن حزم

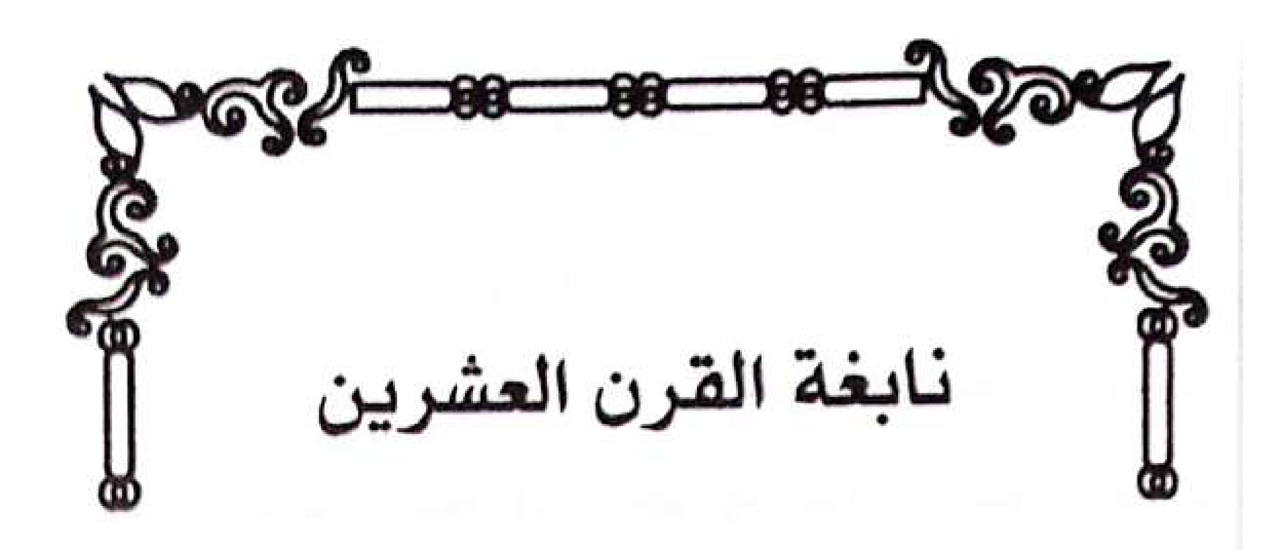
الطَّبْعَةُ الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٦٣٦٦ - تلفون: ٧٠١٩٧٤



نابغة القرن العشرين

الأديب الكبير الأستاذ:
مصطفى صادق الرافعي

جاء يمشي هادئاً يتخيل في مِشيته، يرجف بين الخَطوة والخطوة كأنه من كِبْره يُشعرك أن الأرض مدركة أنه يمشي فوقها... ولا ينقل قدمه إذا خَطا حتى ينهض برأسه يُحرِّكه إلى أعلى، فما تدري أهو يريد أن يطمئنَّ إلى أن رأسَه معه.. أم يُخيَّل إليه أن هذا الرأسَ العظيم قد وُضع على جسمه في

موضع راية الدولة، فهو يهزُّه هزَّ الراية...

وأخذتْه عيني وليس بيني وبينه إلا طولُ غرفة وعرضُها، فإذا هو زائغُ البصر كأنما وقع في صحراءَ يقلِّب عينَه في جهاتها متحيراً متردِّداً، ثم كأنما رُفِعَ له في أقصاها جبل فأخذ إلى ناحيته..

ورحَّبتُ به، وأجلستهُ إلى جانبي، فأخذ يَسْتَغْرِفُ إليَّ بذكر اسمه وجماعته وبلده، لا يزيد على ذلك شيئاً، كأنه عنترةُ بني عَبْس: لأرضه من طبيعتها جغرافياً، ومن اسمه جغرافياً على حِدَة... فلما رآني لا أُثْبِتهُ معرِفةً قال: إن بك نسياناً.

قلت: وكثيراً ما أَنسى غير أن اسمك ليس من هذه الأسماء التي تذكَّر بتاريخ.

قال: هذه غلطةُ الجرائد.. ومهما تنسى

من شيء فلا تنسَ أنك أستاذُ «نابغة القرن العشرين». . . .

فسرَّحتُ فيه نظري، فإذا أنا بمجنونٍ ظريفٍ أمردَ أهيفَ، يكاد برخاوته وتفكّكه لا يكون رجلاً، ويكاد يبدو امرأةً بجمال عينيه وفتورهما.

وتوسمتُ فإذا وجهٌ ساكنٌ منبسطُ الأساريرِ ممسوحُ المعاني، يُنبىء بانقطاع صاحبه مما حوله، كأن دنياه ليست دنيا الناس، ولكنها دنيا رأسه. . .

وتأملتُ فإذا طفولةٌ متبلّدة قد ثبتت في هذا الوجه لتُخرجَ من بين الرجلِ والطفلِ مجنوناً لا هو طفلٌ ولا رجل.

وتفرَّستُ فإذا آثارُ معركة بادية في هذه

الصفحة. قتلاها أفكارُ المسكين وعواطفه.

وتبيَّنتُ فإذا رجلٌ مُسْتَرْخٍ، مُتَفتِّرُ البدن، خائرُ النفس، كأنه قائم لِتَوِّه من النوم فلا تزال في عينه سِنَةٌ، وكأنه يتكلم من بقايا حُلمٍ كان يراه...

وخُيِّل إليَّ من هذا الخُمولِ في هذا الشاب، أن عليه جوًّا من تثاؤبِه، وأن المكانَ كلَّه يتثاءبُ، فتثاءبت...



فلما رأى ذلك مني ضحك وقال: إن «نابغة القرن العشرين» رجل مغناطيسيّ عظيم؛ فها هو ذا قد ألقى عليك النوم.. وحسبك فخراً أن تكون أستاذه وأخاه وثِقتَه. «فليس على ظهرِها اليوم أديبٌ غيري وغيرَك...».

قلتُ في نفسي: إنا لله، ما يعتقد الرجلُ أن على ظهرها مجنوناً غيره وغيري، وكأنما ألمّ بذلك فقال: لستُ مجنوناً؛ ولكنني كنت في البيمارستان...

قلت: أهو البيمارستان الذي يسمَّى مستشفى المجاذيب؟

قال: لا؛ إن هذا الذي تسميه أنت، هو مستشفى المجاذيب؛ أما الذي سميتُه أنا فهو مستشفى فقط...

وذكرتُ عندئذٍ أن من المجانين قوماً ظُرفاء يدخلُهم الفسادُ في عقولهم من ناحية فكرة ملازمة لا تبرح، فلا يكون جنونُهم جنوناً إلا من هذا الوجه، وسائرُ أحوالهم كأحوال العقلاء، غير أنهم بذلك طيَّاشون متقلّبون، إذا ازْدُهي لم يُطقه

الناس من زَهوه وكبريائه وتنطّعه، كأنه واحد الدنيا في هذه الفكرة، وكأن بينه وبين الله أسراراً؛ ويظن عند نفسه أنه أعقلُ الناس في أرقى طبقاتِ عقله، وما جنونُه إلا في هذه الطبقة وحدها.

ومثلُ هذا لا بدّ له ممن يستجيبُ لهذَيانه كيما يحركَ فيه خفتَه وطيشه وزهوَه، وليكونَ عنده الشاهدَ على هذا الوجود الخياليّ المُبدع الذي لا يوجد إلا في عقله المختل. فإذا هو ظفر بمن يُحاسنهُ، أو يصانعُه، أو يجاريه، حَسبه مذعناً مؤمناً مصدّقاً، فلا يدعه من بعده ويتعلق به أشدَّ التعلق، ويراه كأنه في ملكه.. فيتخذه صفيًا وهو يعتقد أنه رقيق؛ وقد يَزعمُهُ أستاذَه لِيُفهمَه من ذلك بحساب عقلِه... أنه تلميذُه.

وخشيتُ أن يكون (نابغة القرن العشرين)

لم يُسمِّني أستاذَه إلا بحسابٍ من هذا الحساب، فهو سيُعطي الأستاذيةَ حقَّها، ولكن كما هو حقُّها في لغة جنونه... فأصبحُ في رأيه تلميذه وصنيعته، ومحدّثَ هذيانه، وثقتَه وملجأه، والمحاميَ من ورائه.

قلت في نفسي: إذا أنا تركتُه جالساً كان هذا المجلسُ مَثابَتَه من بَعدُ، فلا يعرفُ له محلاً غيره، ويصبح كما يقال في تعبير القانون «محلة المختار»، فَيَتَطَرَّأُ إليَّ لسبب ولغير سبب، ويقعُ في أوقاتي وقوعَ السهو لا حسابَ عليه، ويَضيعُ فيه ما يضيع. فأجمعتُ أن أصرِفَه راضياً باليأس؛ وقد انتهت نفسُه من معرفتي، وانتهى عقلُه إلى الرأي أني لا أصلح له أستاذاً، لا بحسابه هو ولا بحساب الناس.

فقلت له: ظني بك أنك أستاذُ نفسك، ولا

يَحسنُ بنابغة القرن العشرين أن يكونَ له في القرن العشرين أستاذ؛ وأراك قد فرغتَ للأدب، أما أنا فمشغول بأعمال وظيفتي، وقد جاء من العمل ما تراه، وتكاد لا تفي به الساعاتُ الباقيةُ من الوقت و . . .

فقطع عليّ وقال: إن الوقت ليس في الساعة؛ والدليلُ أني أعطِّلها فيتعطلُ الوقت، ولا يكون فيها يومٌ ولا ساعة ولا ثانية ولا دقيقة.

فقلت: ولكنك إذا عطلتَها لم تتعطل الشمسُ التي تعيِّنُ منازِلَ النهار، فسيَمُرُّ الظهرُ ويَحينُ العصر و . . .

قال: ويأتي غد. وإنما أنا معك اليوم فقط . . . ويجب أن تغتبط بأنك أستاذ (نابغة القرن العشرين)، فقد قرأت الكثير في الأدب وقرأتك، فما كان لي رأيٌ إلا رأيتُه لك . . . ولا

صحَّت عندي نظرية إلا رأيتك قد أبديتَها، وأنا لا أعتقد أدباً في مصر إلا ما توافَيْنا عليه معاً «ولا أسلّم جدَلاً، ولا جدَلاً أسلّم أن في مصرَ أدباء ينالون مني شيئاً. فهو أنا وأنا هو»، ولئن لم يذعنوا (لنابغة القرن العشرين) فليعلَمُنَّ أنهم «وقعوا مني موقع نملةٍ على صخرة... هذا من جهة، ومن جهة أريد سجائر وليس معي ثمنُها»...

فتهللْتُ واستبشرتُ، وقلتُ له: هذا قرش فهلمَّ فاشتر به دخائنك. وفي رعاية الله. ثم استويتُ للقيام، ولكنه لم يقم؛ بل تمكّن في مجلسه.

❋ ❋ ❋

وكرهت أن أتغير له وما أشكّ أنه في هذا

صحيحُ التمييز؛ فما أسرع ما قال: إن «نابغة القرن العشرين» فتى قويُّ الإرادة؛ فإذا هو لم يصبر عن التدخين ساعات فما هو بصبور... وإذا لم يُثْبتْ لك هذا الأمر عن مُعاينة... فما أعطيتَه حقَّه.

فقلت في نفسي: لقد غرستُ الرجلَ من حيث أردتُ اقتلاعَه، وأيقنتُ أنه من عقلاء المجانين الذين تتغير فيهم العاطفةُ أحياناً فتلهمهم آياتٍ من الذكاء لا يتفق مثلُها إلا لنوابغ المنطق؛ وذكرت (بهلول) المجنون الذي حكوا عنه أن إبراهيم الشيباني مرَّ به وهو يأكل خبيصاً فقال له: أطعمني. قال: ليس هو لي، إنما هو لعاتكةَ بنتِ الخليفة بعثتْه إليّ لآكله لها...

وقالوا: إنه مر بسوق البزَّازين فرأى قوماً مجتمعين على باب وكان قد نُقِب، فنظر فيه

وقال: أتعلمون من عمل هذا؟ قالوا: لا. قال: فأنا أعلم.

فقالوا: هذا مجنون يراهم بالليل ولا يتحاشَونه، فألْطِفُوا به لعله يخبركم. ثم قالوا: أخبرنا. قال: أنا جائع، فجاؤوه بطعام سَنِيٍّ وحلواء؛ فلما شبع قام فنظر في النقْب وقال: هذا عمل اللصوص...

وكانت مجلة (الرسالة) في يد (نابغة القرن العشرين)، فوصل الكلامَ بها وقال: إنه يقرأ كل مقالاتي، وإنه وإنه، وإنها وإنها. قلت: فما استحسنتَ منها؟ قال: (مقالة السيما)...

فقلت: متى كان آخرُ عهدِك برؤية السيما؟ قال: أمس.

قلت: فأنا لم أكتب مقالاً عن السيما،

ولكنك أعجبت بما رأيتَ أمس فتحوَّل ما رأيتَه حلماً في مقالة.

فأعجبه هذا التأويل وقال: بمثل هذا أنا (نابغة القرن العشرين)، فأقرأُ مقالتَك في الغيب من قبل أن تكتبَها...

قلت: إنك تكثر أن تقولَ عن نفسك (نابغة القرن العشرين)، وهذا يَحصرُ نبوغَك في قرن بعينه؛ فلو قطعتَ الكلمة وقلت: (نابغة القرن)، لصحّ أن تكون نابغة القرن التاسع عشر والثامن عشر، وما قبلهما وما بعدهما.

فرأيتُ به شَدْهَةً كأنه يفكر في جنونه، ثم أفاق وقال: لا. لا؛ وإن هاهنا موضع نظر، فلو رضيتُ بنابغة القرن فقط، لجاء من يقول: إني نابغة قرن خروف...

❋ ❋ ❋

فقلت في نفسي: حَمأة مُدَّت بماء، وإن هذه الوساوس لا تنفكّ تَعرو هذا المسكينَ ما وجد من يكلمه؛ والأفكار في ذهنه مجتمعة مختلطةٌ مسترسلةٌ كأنها ثورة من الكلام لا نظامَ لها، فلأسكتْ عنه ولأتشاغلْ بما بين يديَّ.

وسكتُّ وأعرضتُ عنه؛ فجعل طائفُه يعتريه، وكأن السكوتَ قد سلَّط أفكارَه عليه، وكأنها أخذت تصيح به في رأسه كما يصيح غلمانُ الطرق بالمجنون، لا يزالون به حتى يُخرِدُوه ويُفقدوه البقيةَ من صبرِه وعقله معاً. فغضب (نابغة القرن العشرين) ونقله الغضبُ إلى حالة زَمْهَرَتْ فيها عيناه، وكلَحَ وجههُ حتى خفتُ أن يثورَ به الجنون، فأقبلتُ عليه وتعلَّلتُ بسؤاله: ألك إخوة؟ ألم ينبغ فيهم نابغة...؟

قال: إن له أخاً يعذبه، ويُوقعُ به ضرباً، ويغلِّله بالسلاسل، ويشدُّه «بأمراسِ كَتَّانٍ إلى صُمِّ جَنْدل»، وأنه أنزل به من العذاب ما لو أنزله بحجر لتألم.

قلت: فأنت في حاجة إلى راحةٍ، ويحسن بك أن تأوِيَ إلى مكان تتمدَّد فيه.

قال: إني منصرفٌ وسأجلس في قهوة كذا «هذا من جهة، ومن جهة ليس معي ثمن القهوة».

قلت: فهذا قرش تدفعه ثمناً لها، فاذهبْ فاستمتعْ بها وبالتدخين وبالراحة في ذلك النديِّ، فالمكانُ هاهنا كثير الضجيج والحركة. واستوفزتُ للقيام؛ ولكنه لم يَتَحَلْحَلْ من مجلسه.

* * *

ثم قال: أراك الآن مُسْتَبْصِراً أني (نابغة القرن العشرين) بعينه.

قلت: بل بعينيه اليمنى واليسرى معاً....

قال: لا. لا؛ إنك نسيتَ أن العربَ تقول في التوكيد: عينهُ ونفسهُ وذاتهُ. «أي أنا نابغة القرن العشرين بعينِه ونفسِه وذاتِهِ، فليس غيري نابغة القرن العشرين».

وكادت نفسي تخرج غيظاً، ولكني رأيتُ الحلم على مثل هذا يجري مجرى الصَّدَقة؛ وقلت: إن أدباء المجانين كثيراً ما يتفق لهم الإبداعُ الطريف إذا علَّلوا شيئاً، كذلك القاصّ الذي كان يقصُّ على العامة سيرةَ يوسف عليه السلام، فقال لهم فيما قال: إن الذئب الذي أكل يوسف كان اسمه كذا، فردوا عليه: إن يوسف

لم يأكله الذئب. قال: فهذا هو اسمُ الذئب الذي لم يأكل يوسف.

فقلت للمجنون: فما العلةُ عندك في أن العرب لم يقولوا في التوكيد: عينُه وأذنه وأنفُه وفمه ويدُه ورجله؟

فنظر نظرةً في الفضاء ثم قال: ليسوا مجانين فيَخلِطُوا هذا الخلط، وإلا وجب أن يقولوا مع ذلك: وعمامته وثوبه ونعله وبعيره وشاتهُ ودراهمهُ. «هذا من جهة، ومن جهة ليس معي أجرة السيارة إلى بلدي وهي قرشان».

قلت: هذه هي أجرة السيارة وصَحِبتْك السلامة، ونهضتُ واقفاً؛ ولكنه لم يتحرك.

* * *

ثم قال: إنك لم تعرف بعدُ «أني أقول الشعر في الغزل والنسيب والمدح والهجاء والفخر؛ وأني في الخطابة قُسُّ بن ساعدة أو أكثم بن صَيفي، وأني صخر لا ينفجر... يابس لا ينعصر، لست كالحجَّاج بل كعمر».

قلت: هذا شيء يطول بيننا ولا حاجةَ لك بهذه البراهين كلِّها، فقد آمنتُ أنك نابغة القرن العشرين في الأدب والشعر والخَطابة والترسُّل.

قال: والفلسفة؟

قلت: والفلسفة وكلُّ معقول ومنقول؛ وقد انتهينا على ذلك.

قال: ولكنك تحسبني مجنوناً أو ممروراً «كما حسبتني الجرائد التي زعمت أن اختفائي في البيمارستان كان لجنوني الفكريّ أو لذكائي

الطبيعي وهو الأصح... فبيّن لهذه الجرائد أني خرجت، وأني سأطبع الأدب بطابع جديد».

قلت: ولكني لستُ مراسل جرائد. قال: «فاجعلني رسالةً وراسِلْها عني أو أكتبُ لك أنا ما ترسله، وما جئتك إلا لهذا؛ ويجب أن تلحقني بجريدة كبيرة، وهذه الجرائد تعرفني كلها، وقد تناولتني من جميع النواحي الأدبية؛ فضلاً عن أني كاتب فَذّ، وخطيب فَذّ، وشاعر فَذّ، وهذا قليل من كثير»، فهل أعوّل عليك في صلتي بالجرائد أو لا؟

قلت: إنك تعرفهم ويعرفونك، وقد بلَوْتَهم وبَلَوْا منك؛ فلستَ في حاجة إليَّ عندهم.

قال: «إنهم يخشون بأسي، وقد حسبوني مجنوناً استهوته الشياطين؛ وما علموا أن شيطانَ

الشعر هو الذي استهواني، كما أنَّ شيطان الحب هو الذي استهواك... هذا من جهة، ومن جهة ليس معي ثمن الغداء، ولا أكلفك شيئاً...».

قلت: فهذا قرش للغداء في مطعم الشعب. وهم الآن يتغدّون ويُوشِكُ إذا أبطأتَ أن تُوافِقهم وقد استنفدوا الطعام، وأنت لا تجهل أن القرش في مطعم الشعب هو قرشان في القيمة.

قال: صدقت؛ يُوشِك أن أوافقَهم وقد فرغوا من طعامهم وغسلوا الآنية. فلأبْقِ هذا للعَشاء وسأطوي إلى الليل...

قلت: فمعك الآن ثمن الدخان، والقهوة والغداء، وأجرة السيارة إلى بلدك. وقد كان نابغة القرن الثالث للهجرة واسمه (طاق البصل) يغني بقيراط ولا يسكت إلا بدانق. هذا من جهة،

ومن جهة فخذ هذا القرش ثمناً لسكونك وانصرف.

* * *

فشقّ ذلك عليه وقام مُغْضَباً وتنفستُ بعده الصُّعَداء الطويلة... وفتحتُ النافذة واستقبلتُ الهواء النقيّ وأخذتُ في رياضة التنفس العميق، ثم زاغتْ عيني إلى الباب؛ فإذا (نابغة القرن العشرين) مقبلٌ مع نابغة قرنٍ آخر...

رأيتُ المجنونين يدخلان معاً، فكأنما سَدّا الباب وسَوَّياه بالبناء وتركا الغُرفة حائطاً مُصْمَتاً لا بابَ فيه، مما اعتراني من الضيق والحرَج؛ وقلت في نفسي: إنه لا مذهبَ للعقل بين هذين إلا أن يُعينَ كلاهما على صاحبه، فأرى أن أدَعَهما وأكونَ أنا أصرِفُهما؛ ولربما جاء من النوادر في

اجتماع مجنونين ما لا يأتي مثله من عقلين يجتمعان على ابتكاره؛ غير أني خشيتُ أن أكونَ أنا المجنونَ بينهما، ثم لا آمن من أن يَثِبَ أحدُهما بالآخر إذا خطرتْ به الخطْرَةُ من شيطانه، فرأيت أن يكونَ لي ظهيرٌ عليهما، إن لم يحقَّ به العَوْنُ فلا أقلَّ من أن يطولَ به الصبر... وكان إلى قريبٍ مني الصديقُ (ا.ش) فأرسلتُ في طلبه.

أما هذا المجنونُ الثاني الذي جاء به (نابغة القرن العشرين) فقد رأيته من قبل، وهو كالكتاب الذي خُلِّطت صُحُفُه بعضُها في بعض فتداخلت وفسد ترتيبُها وانقلب بذلك العلمُ الذي كان فيها جهلاً وتخليطاً، يثِبُ الكلام بعد كل صفحة إلى صفحة غريبة لا صلَةَ لها بما قبلها ولا بعدها.

وهو طالبٌ أزهريّ كان أكبر همّه أن يصير

حافظاً كالحفّاظ الأقدمين من الرواة والفقهاء، فجعل يستظهِرُ كتاباً بعد كتابٍ ومتْناً بعد متن؛ وكانت له أذُنٌ واعيةٌ، فكل ما أُفرِغ فيها من درسٍ أو حديثٍ أو خَبر، نزلَ منها كالنقْر على آلةٍ كاتبة. فينطبعُ في ذهنه انطباعَ الكتابة: لا تُمحى ولا تُنسى.

ثم التاثَ هذه اللُّوثةَ وهو يحفظ متناً في فقه الشافعي (رضي الله عنه)، فغبرَ سنين يتحفَّظُه، كلما انتهى إلى آخره نَسِيَه من أوله؛ فيعود في حفظه وربما أثبتَ منه الشيء بعد الشيء، ولكنه إذا بلغ الآخرَ لم يجد معه الأول؛ فلا يزالُ هذا دأبَه لا يملُّ ولا يجد لهذا العَناءِ معنى، ولا يزال مقبلاً على الكتابِ يَجمعه، ثم لا يزال الكتابُ يتبدَّدُ في ذاكرته.

وترك المعهد الذي هو فيه وتخلى في داره

للحفظ، وأجمع ألاّ يدعَ هذا المتنَ أو يحفظَه، كأن فيه الموضعَ الذي فارقه عقلُه عنده، وبذلك رجع المسكينُ آلةَ حفظٍ ليس لها مِسَاك؛ وأصبح كالذي يرفع الماء من البحر، ثم يلقيه في البحر، لينْزحَ البحر...

* * *

وجاء (ا.ش) فقلت له، وأومأتُ إلى المجنون الأول: هذا نابغةُ القرن العشرين.

قال: وهل انتهى القرنُ العشرون فيُعرف من نابغتُه؟

فقلت للمجنون: أجبه أنت. فسأله: وهل بدأ القرنُ الواحدُ والعشرون؟

قال: لا.

قال: فإن هذا الذي إلى جانبي نابغة القرن الواحد والعشرين.... فكما جاز أن يكون نابغةَ قرن لم يبدأ، جاز أن أكون أنا نابغةَ قرن لم ينته.

قلتُ: ولكنك زدت المشكلة تعقيداً من حيث توهَّمت حلَّها؛ فكيف يكون معك في آنٍ وبينك وبينه خمسٌ وستون سنة؟

فنظر نظرةً في الفضاء، وهو كلما أراد شيئاً عسيراً نظر إلى اللاشيء..

ثم قال: هذه الأمورُ لا تشتبه إلا على غير العاقل... وكيف لا يكون بيني وبينه خمسٌ وستون سنة وأنا أتقدَّمه في النبوغ بأكثر من علم العلماء في خمسٍ وستين سنة..؟

قلت للآخر: أكذلك؟

قال: مما حفظناه عن الحسَن: أدركنا قوماً

لو رأيتموهم لقلتم: مجانين. ولو أدركوكم لقالوا: شياطين...

فضحك الأول وقال: إنه تلميذي.

قال الثاني: لقد صدق فهو أستاذي، ولكنه حين ينسى لا يذكُره غيري...

قلت: لا غَرْوَ «فمما حفظناه» عن الزُّهْري: إذا أنكرتَ عقلَك.

فغضب نابغة القرن العشرين وقال: ويحٌ لهذا الجاهل، الأحمق، الجاحد للفضل، مع جنونه وخَبَلِه. أيذكُرني وهو منذ كذا وكذا سنةً يحفظ متناً واحداً لا يُمسكه عقلُه إلا كما يُمسك الماءَ الغرابيل؟ صدق والله من قال: عدوٌّ عاقل خيرٌ؛ خير؛ خير. فقال الثاني: خيرٌ من صديق جاهل، ها أنذا قد ذكَّرتك من نسيان، وها أنت ذا رأيت.

فضحك النابغة وقال: ولكني لم أُرِد أن أقولَ هذا، بل أريد أن أؤلفَ كلاماً آخر... عدوٌ عاقل خيرٌ، خيرٌ، خيرٌ؛ خير من مجنون جاهل....

❋ ❋ ❋

ورأيتُ أن في التقاءِ مجنونين شيئاً طريفاً غيرَ جنونهما، وصحَّ عندي أن المجنونَ الواحد هو المجنون؛ أما الاثنان فقد يكون من اجتماعهما وتحاورهما فنٌّ ظريفٌ من التمثيل، إذا وَجدا من يُصَرِّفهما في الحديث، ويستخرِجُ ما عندهما، ويستكشفُ منهما قصتَهما العقلية....

ولم أَكن أعرف أن (نابغة القرن العشرين) من المجانين الذين لهم أُذُنٌ في غير الأذُن، وعينٌ في غير العين، وأنف بغير الأنف؛ إذ تتلقى

أدمغتُهم أصواتاً وأشباحاً وروائحَ من ذات نفسها لا من الوجود، وتدركُها بالتوهم لا بالحاسة، فتَتَخلَّقُ هواجسُهم خَلْقاً بعد خَلق، وتخطر الكلمةُ من الكلام في ذهن أحدهم فيخرجُ منها معناها يتكلمُ في دماغه أو يمشي أو يلاطفه أو يؤذيه أو يفعلُ أفعالاً أخرى.

وبينا أنا أديرُ الرأيَ في إخراج فصل تمثيليّ من الحِوار بين هذين المجنونين، إذ قال (نابغة القرن العشرين): صَهْ، إن جرس «التلفون» يدقّ.

قال (ا. ش): لا أسمع صوتاً، وليس هاهنا «تلفون».

فاغتاظ المجنون الآخر وقال: إنك تَتَقَحّمُ على النوابغ ولستَ من قدرهم، وما عملُك إلا أن تنكر؛ والإنكارُ، ويلك، أيسرُ شيء على

المجانين وأشباه المجانين، والعامة وأشباهِ العامة؛ وقد أنكرتَ نبوغَه آنفاً، وأراك الآن تنكر «تلفونه» . . .

قال (ا.ش): وأين «التلفون» وهذه هي الغرفة بأعيننا؟

فضحك (نابغة القرن العشرين) وقال: صَهْ ويْحك لقد خلَّطت عليَّ؛ إنَّ الجرس يدقُّ مرة أخرى، وأنا لا أريد أن أكلمها حتى يطولَ انتظارُها، وحتى تدقَّ ثلاث مرات، وأخشى أن تكون قد دقت الثالثة وذهب رنينُها في صوتك ولَغَطِكَ . . .

قال المجنون الآخر: هي صاحبتُه التي يهواها وتهواه؛ وقد استَهامها وتَيَّمها وحيَّرها وخبَّلها، حتى لا صبرَ لها عنه، فوضعتْ له تلفوناً في رأسه. . . .

قال «النابغة»: وهذا التلفون لا يُسمِعني صوتها فقط، بل هو يُنشِقُني عطرَها أيضاً. وقد تكلمني فيه الملائكة أحياناً، وأنا ساخط على هذه الحبيبة فإنها غيورٌ تُخشَى سَطَواتُها على اللائي نَغار منهن، ولولا ذلك العين. لكلمتني في هذا التلفون إحدى الحُورِ.

قلنا: أو تَغار منها الحورُ العين؟

قال المجنون الثاني: بل الأمرُ فوق ذلك، فإن الحور العين يشتُمنها ويلعنَّها؛ «فمما حفظناه» هذا الحديث: «لا تؤذي امرأةٌ زوجَها في الدنيا إلا قالت زوجتُه من الحور العينِ: لا تؤذيه قاتلكِ الله؛ فإنما هو عندك دَخيلٌ يُوشِك أن يفارقَك إلينا».

قال (نابغة القرن العشرين): ويلي على

المجنون إنه يريد أن يخلوَ له موضعي فهو يتمنى هلاكي وانتقالي وَشيكاً من هذه الدنيا. وهو يقولُ بغير علم لأنه أحمقُ ليس له عُقدةٌ من العقل، فيزعم أنها تؤذيني، ولو هي آذتني لغضبتُ قبل ذلك، ولو غضبتُ لرفعت التلفون. صَهْ إن الجرس يدق.

***

قال (ا. ش): إن للنوابغ لشأناً عجباً، ففي مديرية الشرقية رجلٌ نابغةٌ ماتت زوجته وتركت له غلاماً، فتزوج أخرى وهو يعيش في دار أبيه، فلما كان عيدُ الأضحى سأل أباه مالاً يبتاع به الأضحية فلم يُعطه. وهو رجل يحفظ القرآن، فذكر قصة إبراهيم (عليه السلام) ورؤياه في المنام أنه يذبح ابنه، فخُيّل إليه أن هذا بابٌ إلى النبوة،

وأن الله قد أوحى إليه، فأخذ الغلامَ في صبيحة العيد وهمَّ بذبحه، ولولا أن صرخ الغلامُ فأدركه الناس فاستنقذوه...

قال (نابغة القرن العشرين): هذا مجنون وليس بنابغة؛ بل هذا من جهلاء المجانين؛ بل هو مجنون على حِدَته. وقد رأيته في البيمارستان في حين كنت أنا في المستشفى... فكان يزعم أنه ائتمر في ذبح غلامه بإرادة الله. ولو كانت إرادة الله لنفذت بالذبح، ولو كان الأمر وحياً لنزل عليه من السماء كبشٌ يذبحه... وهكذا أنا في المنطق (نابغة القرن العشرين).

ثم إنه أشار إلى المجنون الثاني وقال: وأنا أتقدم هذا في النبوغ بأكثر من علم العلماء في خمس وستين سنة كاملة.

قلت: ولكنك ذكرتَ هذا من قبل فلمَ عُذتَ فيه الآن؟

قال: إن السبب قد تغير فتغير معنى الكلام؛ وقد بدا لي أنه يتمنى هلاكي ليكونَ هو نابغةَ القرن العشرين. فمعنى الكلام الآن: أنه لو عاش خمساً وستين سنة «يحفظ المتن» لما بلغ مبلغي من العلم. هذا رجل نصفه ميتٌ جنوناً موتاً حقيقيًا، ونصفه الآخر ميتٌ جهلاً بالموت المعنوي.

قال (ا. ش): حسبُهُ أن يقلدك تقليدَ العاميّ لإمامهِ في الصلاة؛ وعسى ألا تستكثر عليه هذا فإنه تلميذك.

قال المجنون الثاني «مما حفظناه»: لو صُوِّر العقلُ لأضاء معه الليل، ولو صور الجهلُ

لأظلم معه النهار. . . ونابغة القرن العشرين هذا لا يعرف كيف يصلي، فقد وقف منذ أيام يصلي بالشعر. . . ولما رأيته ناسياً فذكرته ونبهتُه أن الصلاة لا تجوز بالشعر، التفت إليَّ وهو راكع فسبَّني وشتمني وصرخ فيَّ وقال: ما شأنك بي؟ هل أنا أصلي لك أنت. . .؟

فغضب «النابغة» وقال: والله إنْ تحسبونني إلا مجنوناً فتريدون أن يقلدني هذا الأحمقُ الذي ليس له رأيٌ يمسكه. ولولا ذلك لما اعتقدتم أن تقليدي من السهل الممكن، ولعرفتم أن نابغة القرن العشرين نفسه لم يستطع تقليدَ نابغة القرن العشرين.

قلنا: هذا عجيب. وكيف كان ذلك؟

فضحك وقال: لا أعدّكم من الأذكياء إلا

إذا عقلتم كيف كان ذلك؟ قال (ا. ش): هذا لم يُعرَف مثلُه فكيف نعرفه؟ ولم يتوهمه أحد، فكيف نتوهمه؟

قال: لو لم تكن أستاذَ نابغة القرن العشرين لما عرفتها؛ وهذا نصفُ الصواب؛ وما دمت أستاذي، فلو أننا اختلفنا في رأي لكان خلافُك لي صواباً لأنه منك، وكان خلافي لك صواباً لأنه مني؛ فأنت (غير مخطىء) وأنا مصيب، وإذا أسقطنا كلمة (غير) أظلُّ أنا مصيباً وتكون أنت مخطئاً. . . .

أنا لم أر (نابغة القرن العشرين) في الرؤيا، ولكني رأيته في المرآة عند الحلاق. . . ورأيته يقلدني في كل شيء حتى في الإشارة والقَوْمة والقَعْدة ولكني صرختُ فيه وسبَبتُهُ ففتح فمه، ثم خافني ولم يتكلم. . .

وأومأ إلى المجنون الآخر وقال: وأنا لم أتقدم في هذا النبوغ بأكثر من علم العلماء في خمس وستين سنة.

قال (ا. ش): لقد قلتها مرتين كلتاهما بمعنى واحد، فما معناك في هذه الثالثة؟

قال: هذا الغِرُّ يزعم أني لا أعرف كيف أصلي، ويستدلُّ لذلك بأني صليت بالشعر وأني شتمته وأنا راكع؛ ولو كان عاقلاً لعلم أن شتمي إياه وأنا راكع ثوابٌ له... ولو كان نابغةً لعلم أن الشعر كان في مدح دولة النحاس باشا وأُولي النُّهى.

قلنا: ولكن الشعر على كل حال لا تجوز به الصلاة ولو في مدح دولة النحاس باشا.

قال: لم أُصلِّ به، ولكن خطر لي وأنا أصليّ أني نسيتُ القصيدة فأردت أن أتحقَّق أني

لم أنسها. . . فإذا أنا نابغة القرن العشرين في الحفظ، وهي ستة أبيات. لا كهذا المعتوه الذي صبر على المتن صبرَ الغريب على الغُربة الطويلة، ومع ذلك لم يحفظه.

قال (ا.ش): فأمْلِ علينا هذا الشعر. فأملى عليه:

يـا حـلـيـف الـسُّـهـد قـل لـي
أيـــن مَـــنْ فـــي الـــدهـــر خـــال
إن تـــكـــن تـــهـــوى غـــزالاً
أكـــحـــلَ الـــعـــيـــنـــيـــن مـــال
أنـــا أهـــواهـــا ولـــكـــن
لا ســـبـــيـــل إلـــى الـــوصـــال
مـــنـــذ ولَّـــت قـــلـــت مـــهـــلاً
مـــنـــذ غـــابـــت فـــي خـــيـــال

أنـــا مـــجـــنـــونٌ بـــلـــيـــلـــى

لـــيـــلَ يـــا لـــيـــلـــى! تـــعـــال

قلنا: ولكن ليس هذا مدحاً، فضحك وقال: أردت أن تعرفوا أني أقول في الغَزَل، أما المديح فهو:

شـغـف الـورى بـمـنـاصـب وأمـانـي

وشـغـفـت يـا نـحـاس بـالأوطـان

حـسـبـوا الـحـيـاة تـفـاخـراً وتـنـعـمـاً

وحـــســـبـــتـــهـــا لله والأوطـــان

ثم أُرْتِجَ عليه فسكت. فقال المجنون الآخر: إنها ستة أبيات، وقد نسيت أربعة، ولستُ أريد أن أذكّرك:

فقال (النابغة) أظنه قد حان وقت الصلاة

وأريد أن أصلي. . . ونظر إلى اللاشيء في الفضاء، ثم قال. والبيت الأخير:

لا أبتغي في المدح غير أولي النُّهى
أو صادق أو شوقي أو مطران

ثم أمر (ا. ش) أن يقرأ عليه الشعر فقرأه، فقال: أحسنت، انظر إلى فوق. فنظر، ثم قال: انظر إلى تحت. فنظر ثم سكت.

قال (ا. ش): وبعدُ؟ قال: وبعدُ فإن الناس ينظرون إما إلى فوق وإما إلى تحت. . .

❋ ❋ ❋

وكان الضجر قد نال مني، فرجوت (ا. ش) أن يلبثَ معهما وأذنت لنابغة القرن العشرين أن يلقاني في الندّى وانصرفت. .

قال (ا.ش) وهو يُنبِّئني: فما غبتَ عنا حتى أخذ المجنون يشكو ويتوجع ويقول: لقد حاق بي الظلم، وإن (الرافعي) رجل عَسُوفٌ ظالم، لأني أكتب له كل مقالاته التي ينشرها في (الرسالة)... وأجمع نفسي لها، وأجهدُ في بيانها، وأذيب عقلي فيها، وهو مستريحٌ وادعٌ، وليس له إلا أن ينتحِلها ويضعَ توقيعهَ عليها. ويبعثَ بها إلى المجلة، ثم هو يقبض فيها الذهب وينال الشهرة، ولا يدفع لي عن كل مقالة إلا قرشين...

* * *

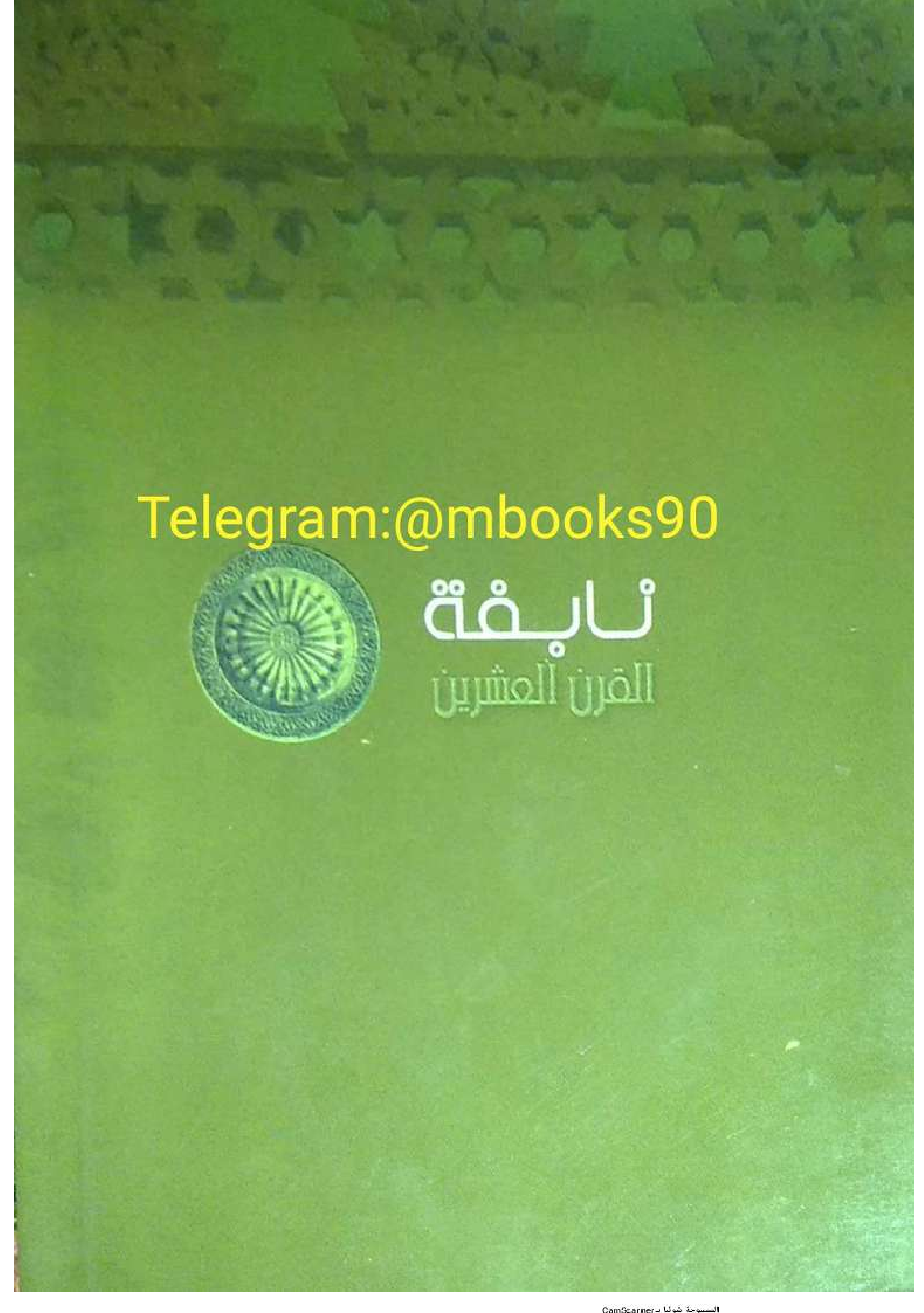
قال (ا.ش): فما يمنعك أن ترسل أنت هذه المقالات إلى المجلة فتقبضَ فيها الذهب؟ قال: إن هناك أسراراً أنا مُخصِنُها وكاتمُها، ولا ينبغي أن يعلَمها أحد فإنها أسرار... قال له: فدع (الرافعي) واكتب لي أنا هذه المقالات، وأنا

أعطيك في كل مقالة ذَهبَين لا قرشين.

قال هذه أسرار ولا أستطيع أن أكتب إلا للرافعي، لأن (نابغة القرن العشرين) لا يجوز أن يدّعي كلامَه إلا أستاذُ نابغة القرن العشرين، ولو ادّعاه غيره لكان هذا حطاً من قدر نابغة القرن العشرين، وهذا بعض الأسرار لا كل الأسرار...

قلت: ثم جاء المجنونان في العَشِيَّة إلى الندّى.

❋ ❋ ❋


Telegram:@mbooks90
نابغة
القرن العشرين